

## قصة بقاء قيلة السابينة

# أهدية من نار

تهرا السفف ! ...

تهراً سقف بيتي ، يا ابي ، تساقطت فوقي رماله ..

ثقب ! ...

ثقب سقف بيتي ، يا ابي .

ان الثوب المثقوب يندرنا ابدا بالنهاية .

ثقب سقف بيتي ... ثقبته الامطار .. فتحت شقوقا في قرميده ،

سأبقت الي من خلال فجواته « تقاطرت » « انداقت » ساحت فسي بيتي .

أركان بيتي ترتجف ارتجافا بلا توقف ، تتناوح بين شقوقه الرياح

.. تتناوح .. تبكي .. قطي سكن .. كلبتي قاء صوته عند أقدامي .

المياه ، يا ابي ، تضرب السقف ، ولضربها رجع فوي ، ولضربها

ترتجف الجدران ، ولضربها يسكن قطي ، ولضربها يدوخ كلبتي عنسد

القدامي ، ولضربها الضرب كل شيء ، ولضربها اصرخ ...

ان صرخاتنا أجسام تريد ان تجد مكانا في الارض .

ويكثر النواح والبكاء .. ويكثر الزفير والضرب ... ويكثر الضرب

والصراخ ، وعلى الطريق أسمع صوت بصقة طويلة « تفو !! »

ثقب سقف بيتي ، يا ابي ، ثقبته الامطار .. فتحت شقوقا كبيرة

في قرميدة ، الامطار تظهر ، تندلق ، تسبح على الجدران ، تتعقبني ..

انا ايضا كنت تعقبت ، كنت تعقبك ، يا ابي ، لاني دوما أجهلك ،

أجهل نفسي ايضا .. فقط .. انتظر كاهي ، انفرج عليها ، وهي

تخدمك ... تجلس عند اقدامك كقطعة اليقة تلمع أهديتك دوما .

في ذلك الصباح - كان حقا صباح مخاض - تعقبك ..

قبل ان تخرج لمعت أمي حذاءك .. كانت تلمعه لك دوما ، حتى

في الايام التي تنصب فيها ، ولمت لك الحذاء ، وساعدتك وأنت تلبس

المطف ، وأيضا شيعتك حتى الباب . وكان ان جاء دوري .

أنت تسير ... تسير ، يا ابي .. وأنا وراءك ..

أنت تسرع ، وتسرع ، تنظر الى ساعتك وأنا وراءك ، تمسحي ،

تسرع ، تتحدث ، وتتحدث وحده ، تساءلت .. بل انحل سؤالي ،

لان مشكلة اضراب اخي عن الدروس ليست من المشاكل التي تحريك ،

فانت تعرف جيدا انه يخاف ، وانه يريد دوما ما يريدون ، ولكنك

تتحدث ، تتحدث وتسرع ، أنت يا ابي تسير ، تسير بلا توقف .

وتمر بجانبك سيارة فخمة ، اشرت اليها ، ظننتك ستركبها وساخسر

صفقة تبعك ، ولكنك - فقط - حيت صاحبها ، وتجاهلك هذا ،

واهتزت ... ماذا فعلت ، يا ابي ؟

هل نسيت ان امي في ذلك الصباح كانت قد لمعت حذاءك ؟

وتسرع .. تسرع وأنا وراءك ، تسرع وأنا خلفك .. ويمر بجانبك

بانع الجرائد ، ويحييك .. رأيتك يحييك ولم تهتم به ، يا ابي ..

رأيتك كذلك يعطيك الجريدة ، يعطيك الجريدة وأنت ساكت .. ودوما

تسرع . وغبت عني قليلا .. خلفتني .. خلفتني وراءك .. خلفتني أنظر

الى بانع الجرائد .. انه يبتسم .. يبتسم .. ونظرت الى حذائه ..

كان حذاءك مثقوبا ، واصبغه الصغيرة تنفرج على الناس منها ، وتساءلت

في حيرة :

«من يساعذك تلك الاصبع على الدخول ؟ من ، من يلعب حذاءها ؟»

وعدت أسرع ، أجري ، الهت وراءك . ورأيتك تدخل المقهى ،

ورأيتهم يحيونك . فقط كنت تنظر .. وشغلت بقهوتك ، وشغلت بك ،

أنت اول رجل تشغلني .. أنت يا ابي .

وتخرج ، وتمشي .. وأتعب وراءك .. ويحيونك يا ابي وتجاهلهم

وتحييهم ويقتلونك . وتصل الي ، الي لست أدري .. وخفت .. خفت

صراحة ، لانك علمتني الخوف ، ولاني كنت دوما أسالك وتسكت ...

تصمت كانك تموت ابدا .

واراك تنحني .. تنحني أنت - أنت يا ابي - امام فار يلبس

حذاء أجمل من حذائك قلت أجمل .. لا .. ربما أجمل .. ربما .. ربما لست أدري ..

أرفع ... لا .. ربما أغلى .. ربما آمن ، ربما .. ربما لست أدري ..

واراك تغلع المطف .. ترميه ، ونمسي منحنيا تحت انقال آكياس

الاسمنت .. وارتميت .. يا ابي ، يا أنت ، ، نرفع آكياس الاسمنت؟

وتنحني .. وتنحني أكثر ، ترفع الصخر ، ، والعرق منك يقطر ..

وتنحني أكثر .. ومع ذلك تصحك ، وتنحني ، وتحني ، . وأراك فوق

السطوح .. تنظف السطوح .. تدفع المياه .. تدفع المياه لتندفق من

الميازيب . وتصورت قدمك بك تزل .. تصورك ، يا ابي ، على الارض ،

على الارض تموت ، تموت وأنا أبقي للبرد ، ويشيعونك بكلماتهم الضخمة

« كان مخلصا ... » ويضيفون اسمك الى قائمة الشهداء .

وتموت ، ، يا مامور ، يا ابي .

ماذا يفعل هذا ؟

ماذا تفعل ، يا ابي ؟

أنت تعطي .. وتعطي وأنت ساكت ايضا .. ربما تخاف كمسا

علمتني وأخي .. واكتشفت أنك تموت فعلا .. أنك ميت ، ، أنك تعطي ،

تستنفذ نفسك ، وتسكت ، تسكت ايضا ، ومن يريد أن يعيش ، من

يريد الإبقاء على ذاته يجب ان يتكلم .. ان يصرخ ايضا .

لقد اكتشفت ، يا ابي يومها ، أنك أعطيتني أشياء لم أطلبها

منك .. كنت تخفي عني أنك ترفع على ظهرك الاسمنت ، وتصمت ،

تصمت كثيرا امامي لتجملني ارضي بما أنت رضىيت ، ولمعرفتك

انني صعبة المراس ، فأنت لا تتركني ألمع حذاءك الذي اكتشفت في

ذلك اليوم ايضا انه يشبه حذاء بانع الجرائد . اكتشفت انه كثير

الشقوق ، لكنه لماع ، لان امي كانت لمعته قبل خروجك . وايضا ، دون

أخي ، كنت تشتري لي الاحذية اللماعة .

ماذا فعلت ، يا ابي ؟

كنت تعطي .. وتعطي .. وتسيت ان كثرة العطاء تولد رغبة

الافتكاك ....

جدران بيتي تقف فيها الفران ! تقف فيها مستقيمة ، ولكن

ستنقرها الامطار .. ستذهب بها بعيدا .. ستأخذها بعيدا الى بيت

آخر لتنحني هناك .. ستذهب بها .. ستأخذها بعيدا .. بعيدا ..

بعيدا .

جدران بيتي يرتجف .. ترتجف بلا توقف .. أركان بيتي تحسنت

الامطار صافرة .. أركان بيتي تحت الامطار قصيرة .. الامطار تندفع

جسمي لا يحس بالخوف .. الخوف ينفصل عن روحي .. الصرير

ينبعث من جميع خلايا نفسي ... ينبعث هادرا .. الضحكات الهستيرية

تنطلق من أعماقي .. التيار يلتهب من حولي ويلهيني . الثقب تتسع

أكثر .. الجدران تبعد عن بعضها أكثر .. الجدران يتسهم .. تصحك ..

بغزارة .. بقوة .. الامطار تهلكني ، تضربني على رأسي ، على رجلي ، ،

تندمى .. تتمايل ، وأنا وحدي في ذلك الهول .

قال لي البناء قبل أن يسقط البيت ، وبعد ان لمع وجهه

بضحكة كبيرة ..

- استطيع ان اسد هذه الثقوب .

- تفعل ماذا ؟

- أفف بجانبك ..

- أنت ، أيها الغاز ؟

- نعم

- ما مدى وجودك ؟

- انه يمتد مع المد ...

- جميل ... ويجف بعد حدوث الجزر اليس كذلك ؟

— أن المدّ فوق كل شيء ..

المد ! . المد ! . المد يظيني يا أبي .. بيتي يسقط .. بيتي ينهار .. جدرانها تنام فوق بعضها .. تتمسح بالأرض .. تعانق المياه . والثوب أبداً ينذرنا بالنهاية .

الجدران تعانق المياه ، وأنا وحدي في ذلك الهول ، حدنسي البناء كثيراً .. يريد أن يعطيني .. يعطيني مثلك ، يا أبي .. والعطاء الرخيص ، يولد ، عندنا نحن الذين نأخذ ، كره العطاء .. ورغبة الافتكاك ..

— أنت أيها الفار ؟

— كم من فار داس عملاقا ..

— أو .. ما كل دوس مطلقا ..

— ولا كل شيء نراه صالحا ، هو صالح في واقعه ..

— الفرق بيننا ، هو أنني أمشي مستعينة بنفسي ، وانسنت مسننين بأسياك .. تمشي بأسياك ...

سقط ! . سقط البيت يا أبي ! . والمياه تجرجر قواعده ... تكسر سواريه وأنا ارتعش باستمرار .. المكان كله يفرق في الأرض ، ويفرق معه أشياء كثيرة .. غلب اللعاب الفارغة الصدئة جدا التي لها وقع مفزع وصورة مفزعة لبيت راحل . لم يكن ثمة شيء يوحي بالقوة . لم يكن ثمة شيء يوحي بالسكينة غير الفئران ، ومتفرج واحد .. وأنا المصلوبة ..

القوة كل يوم تصلب ضعيفا . والضغفاء ينفخون في أبواق من رصاص .

ان تاريخ الصلب وجد بعد ان كثرت أبواق الرماد ...

الماء يسبح .. يسبح بقوة .. غلب اللعاب الفارغة تتعشر ... الفئران تتراقص .. تتراقص سعيدة ..

انه لحبيل أن نصق في وجوه الناس ، السعداء البسطاء .

الماء الهائج يفر كل شيء ! . يحطم كل شيء .. ابتسمت للهائج .. للماء .. تذكرتك ، وانت تبسّم فوق السطوح من بعيد لصاحب الحذاء الجميل ..

تصورتك تموت ، وانت ميت .. فكل ما فعلته في حياتك أنك صامت .. وابتسمت ..

ابتسمت عكس ابتسامتك ،

الماء الهائج يصلبني ! . يداي تتحركان .. تفاومان .. ان الماء يجهل ان بعضي اسمنت وبعضي الآخر صخر ، والبقية عرق .. عرقك أنت ، يا أبي .

الموج يقذفني وأنا مصلوبة .. يجرفني فاهبط ، وارتفع وأف وأنا مصلوبة .. يدور بي ويدورني ، وأنا مصلوبة .. وأقاوم وأسكن ، وأهدأ ، وأستسلم ، وأنا مصلوبة . وحيث أنا مصلوبة أكون موجودة ..

وحيث أنا موجودة أكون قد وجدت .. وحيث قد وجدت ادرك حدودي .

براكم الثلج في هذا المساء ، يا أبي ! . سقط كثيرا .. ورافني في مكاني البعيد الغريب ، المتصل ، المنفصل ، في خراب بيتي ان

انظر الى رجليّ الحافيتين أمامي رأيت ذلك المتفرج .. نفس المتفرج الذي رأته في الصباح يقف أمامي بجذائه الجميل .. رأته أيضا في المساء ،، نسيت أن أقول لك : ان هذا المتفرج قد احتفظ

ببصقته بين شفاهه . وعندما توقف أمامي خلع حذاءه ،،

— اني آسفة ، لان وضعي هنا يجبرك على خلع حذائك ..

— لا تخجلي ..

— انما خجلي من وقتك ، لانك ستعود بصفقة المعبون .

— كلنا نقول هكذا ..

— هل أنت مسرور ؟

— أجل ! . لان المياه لم تغذلك .. كنت رائحة .. جدّ رائحة ..

انك تشبهيني « افروديت » .

— دع هذه المجاملات لغيري ..

— كنت رياضية .. وكنت امرأة أيضا ..

— اشكرك للاولى .. وآسف للثانية ..

— هاتي ينك

— لا أستطيع ، فبعد قليل سيجرني التيار من جديد ..

— هالك حذاء أذن ..

— أوه ! . أضجرتني .. دعه لك .. تركت أحذية كثيرة فسي بيت والدي ..

و .. وتركنه .. وورائي فذف الكلب بصقته ..

ومن بعيد — عبر ميدان المحطة — أرى مكاني يخفقه الدمار ..

لست أدري ماذا يحس المرء عندما يرى أمامه الدمار ، وعندما يشمر أنهم يجدون في تمليع الدمار أيضا ..

هل كان الدمار يلوي لسانك ، يا أبي ؟

ان الدمار هو هجاء كل شيء ، يعني الميل نحو كل شيء رغم الظروف والأوضاع ، وكذلك سار كل شيء نحو الهجاء ..

عرفتك في ذلك الصباح ، يا أبي . وكان حقا صباح مخاض حيث نمت الولادة في الاسمنت .. كنت تلمع وجهك .. تحمل الصخر على

ظهرك .. رأيت أنفك أنفي يفرقه الاسمنت ، رأيتك ترتعش .. تنحني ، تحيي وتبسم أيضا ..

وكرهتك .. خرجت أبحث لنفسني عن بيت .. وجدت البيت .. ثقبته المياه ، لاني أرفض التلميع .. أرفض الاخذ .. أرفض العطاء ..

وتقب السفف .. ثقبته الامطار ، والرياح تتناوح من خلال شقوقه .. والاركان ترتجف .. والقفظ سكن .. والكلب قاء صوته عند اقدمي ..

والثوب المثقوب ينذرنا أبداً بالنهاية ...

والبناء الفار يدوس العملاق ،، والكلب انار مال الى الكفسة الراجعة .. وشيعني ببصقته .. وحرمته « افروديت » والامطار

تزيد .. وأنا مصلوبة على عمودها كالعلم المنكس .. وعلى رأسي أسير .. وعلى حافة العلم برأسي أسير ، وكل ما أمامي دمار ، وهي حدود

الدمار أتعش .. أنتحرك مع اتجاهات الرياح البغيضة ، عيناى تثقبان الفضاء حيث الدمار وما بعده ، كل حركة صعبة .. صعبة جدا ..

الساحة أمامي كبيرة ومملوءة بأحرف الهجاء .. القبضة بالحفاء لا تفارقتي وأنا مصلوبة وعلى العلم برأسي أسير ، والعدم يمتد أكثر مسن

اللزوم ، أكياس الاسمنت فوق ظهرك ، يا أبي ، تظييك .. تحجبك عني .. تبعدك أميالا عني .. تبعدك .. تبعدك .. وشعرت بوحشة

والاكياس نواريك .. وحشة تحيط بي .. تلفني .. وحشة في قلبي وفي الجو أيضا .

ما أبدو الوحشة ! . ما أبدوها حقا ، يا من وأرتك الاكياس .. انها الواقع العاري بلا تلميع .. انها أنت .. أنت ، يا أبي .. وعرقك

يفضل وجهك .. انها انا .. انا التي تجري .. انا التي تفر .. انهم يطاردونني ... يطاردونني ، يا أبي ، وصرخي يسبقني .. لن تحل

— يا أبي — صرخة وراءها فم مفتوح .

اني أجري .. الهت .. أمزق الطريق تحتي .. وهم يجدون في الجري ورأني .. يمدون الي أيديا فقرة .. جدّ فقرة .. يقولون ..

يقولون كلمات كبيرة أيضا ..

« .. يجب ان نسكها .. نقطع بعض الشيء من رجليهـا المرفطحين .. يجب ان نبني السدود .. ان نقيم الاسوار .. ان نذهب الى والدها » .

الوحشة هي انت انا التي تفر .. انا التي تجري .. تجسري وتصرخ ..

« .. اذهبوا اليه .. اذهبوا الى أبي .. خذوه يلصمكم الاحذية .. خذوه ليكون شهيدا من شهدائكم .. أما انا .. أنا أرفض ، أرفض

زواياكم الضيقة ، أرفض كلماتكم الكبيرة ،، أرفض .. ان الرفض ولید ولادتي .. أرفض أيضا هداياكم الرخيصة .. أرفض عطاءكم

البخس » .

مللته .. مللته .. صدقوني . مللته ، لانه اخذ بدون تعب ، والاخذ بدون تعب ضربة من فوق ..

اذهبوا اليه .. اسرعوا اليه .. انه يحسن التلميع .. خذوه .. لن يرفض .. لن يقول « كلا » لن تسمعوا منه « لا » .

انه لا يعرف ما معنى « لا » .

اما انا ! . انا اكره الانتصار .. بدون حق .

نتيلة التباينية